البار المتألم في أدب بلاد الرافدين
القصيدة "لأمجدنّ سيد الحكمة" وسفر أيوب

مقدمة

لوحة فخارية للقصدية البابلية

وردت في الملحق رقم ٨٥ للسلسلة الفرنسية "دفاتر الإنجيل"[1] مختارات من نصوص سومرية، أكادية وآشورية تعالج مسألة عسيرة على قلب الإنسان، مسألة قد شغلت عقول البشر منذ القِدم ولم تزل تشغلها على شتّى الثقافات والأديان، أعني بها مسألة الأوجاع والعذاب الحاكمة على الأبرار والصالحين. بين هذه النصوص تبرز قصيدة أطلق عليها النقاد تسمية فاتحتها أي "لودلول بيل نيميقي" (*Ludlul bel nemeqi*) التي تعني "لأمجدنَّ سيد الحكمة" كما عرّبه قاسم الشوّاف في "ديوان الأساطير."[2] دُوّنت هذه القطعة الشعرية في اللغة الأكادية البابلية في القرن الثالث أو الثاني عشر قبل الميلاد وانتشرت انتشارًا واسعًا في عواصم بلاد ما بين النهرَين على مدى القرون، كما يشهد لنا العدد الكبير من اللوحات الفخارية التي تحتوي على هذه القصيدة وحتى على تفسيرها[3]

القصيدة وتقاربها من سفر أيوب

إن انتقاء دراسة هذا العمل الأدبي الشهير في العدد الحالي لمجلة بيبليا يعود إلى تقاربه من بعض الأسفار البيبلية وخصوصًا من سفر أيوب الحكمي. كيف يتناول كاتب القصيدة مشكلة الثواب والعقاب الإلهيَّين؟ كيف يفسّر آلام البار؟ إلى أي مدى أثّر هذا النص على واضع سفر أيوب؟ هذه الأسئلة تُطرَح في

[1] Lévêque, J., *Sagesses de Mésopotamie*. Augmentées d'un dossier sur le « juste souffrant » en Égypte (Supplément au Cahier Evangile 85), Paris: Cerf, 1993, 60-90.

[2] الشوّاف، قاسم (مترجم ومعلق)، *ديوان الأساطير. سومروأكاد وآشور*. الكتاب الثاني، قدم له وأشرف عليه أدونيس، بيروت: دار الساقي، ١٩٩٧، ٤٢٦–٤٤٩. نعتمد على هذه الترجمة عندما نستشهد بالقصيدة في هذه المقالة. وكل اختلاف بين تعريب الشواف والاستشهادات في هذه المقالة يعود إلى ترجمتنا الخاصة لنص ليفيك الفرنسيّ بسبب وضوحه في التعبير ومعانيه المناسبة لسياق الكلام.

[3] صورة اللوحة منشورة على الموقع <<www.mesopotamien.de/einfuehrung/weisheit.htm>>.

هذا البحث القصير الذي يدرس تفتّح الأدب الحكميّ في العهد القديم على الحوار مع الإرث الفكريّ العالميّ المعروف آنذاك.

في قراءة أولى تذكّرنا القصيدة "لأمجدنَّ سيد الحكمة" بأسلوب أهمّ المقاطع في سفر أيوب وبفحواها إذ أنّها تعتمد على الشعر الرثائيّ وتستعمل قوالب أدبية شبيهة جدًا بالتي ترد في ذاك السفر البيبليّ، فيمكن القول إنّ هذا الرثاء البابليّ ينتمي مع سفر أيوب إلى نمط أدبي واحد يجوز تسميته "الرثاء الحكمي."

آلام بلا سبب؟

ربما أوضح العناصر المشتركة بين هذه القصيدة ومراثي سفر أيوب هو إعلان الشخصية الرئيسية لبراءتها من ارتكاب أية خطيئة قد تبرّر الآلام التي تحتملها: "مع أنّي كنتُ أمينًا للتضرع والصلاة وكانت الصلاة حكمةً لي والذبيحة شريعةً لي. يوم عبادة الإله كان يوم بهجتي ويوم تطواف الإلهة كان كسبًا وفائدة لي" (لأ ٢:٢٣–٢٦)[4] كذلك أيوب لا يتردّد في دفاعته أن يؤكّد براءته وأمانته لله فيقول: "أليس هو ينظر طرُقي ويحصي جميع خطواتي؟ إن كنتُ قد سلكتُ مع الكذب أو أسرعتْ رجلي إلى الغش، ليزنّي في ميزان الحق فيعرف الله كمالي" (أي ٣١:٣–٦)[5].

من هنا يجسر ناظم القصيدة "لأمجدنَّ سيد الحكمة" أن يقول أنّه ظُلم عند تخلّي سيده عنه وتركه للضربات والأوجاع: "الشرّ يتفاقم حولي ولا أجد أي بارقٍ لعدالة. صرخت متوجهًا نحو إلهي، لكنّه صدّ عنّي وجهه، رجوتُ إلهتي، لكنّها لم ترفع رأسها" (لأ ٢:٣–٥). نسمع أصداء هذا التفكير الحكمي في سفر أيوب أيضًا إذ يقول: "أنا بريء، بلا ذنب. زكي أنا ولا إثم لي. هوذا يطلب عليّ علل عداوة. يحسبني عدوًّا له. وضع رجليّ في المقطرة. يراقب كل طرقي" (أي ٣٣:٩–١١).

يعود انذهال الحكيم من هذا التصرف الإلهي الغريب إلى اعتقاده بمبدأ حكميّ قديم يربط الجزاء ارتباطًا وثيقًا بالبُعد الخُلقي للأعمال البشرية. لقد أطلق العلامة فون راد لهذا المبدأ اسم الـ Tun-Ergehen Zusammenhang أي "علاقة العمل بالجزاء" وهو يعلّم أنّ مَن يعمل الخير يحصد خيرًا ومَن يعمل الشرّ

[4] يدل الاختصار "لأ" على اسم القصيدة "لأمجدنَّ سيد الحكمة."

[5] راجع أيضًا أي ١٠:٥– ٧؛ ٣٢:١؛ ٣٤:٥–٦ حيث نجد إعلانات أخرى عن براءة أيوب.

فشرًّا يحصد[6]. لذلك يستغرب كاتب القصيدة البابلية وضعه المظلوم ويقول: "كم هي غريبة حالته، يقال من حولي في كل مكان. وإذا نظرتُ خلفي، فلا أرى غير الاضطهاد والاضطراب. مثلَ شخصٍ لم يقدّم قرابينه السائلة إلى إلهه أو مثلَ شخص لم ينادِ إلهته لتناول وقعة طعامها ولم يحنِ وجهه أو لم يسجد علانيةً" (لأ ٢: ١٠–١٤). وهكذا أيضًا يصرخ أيوب: "هل حرمتُ الفقير بيتَه، أم تراني أكلتُ مال الأرملة؟ ... ليتَ القدير يسمعُني، ليت خصمي يردّ على دعوايَ" (أي ٣١: ١٦ و٣٥).

أسرار الله وغضبه على البشر

يحاول الكاتب الحكمي أن يجد سببًا لهذا التصرف الإلهيّ الغريب الذي يخالف مبدأً جوهريًّا في ترتيب الكون. وفي بحثه عن الأسباب تستوقفه عظمة الأسرار الإلهية وعجز الإنسان لاستيعاب هذه الأسرار. فالكاتب البابلي يقول: "مَن الذي يمكنه التعرف على إرادة الآلهة في السماء؟ ومَن يستطيع تفهّم المقاصد الإلهية في الأعماق السحيقة؟ أين يمكن للبشر، معرفة طرُق الإله؟ ... الناس في لمحة بصر يبدّلون رأيهم ... أسائل نفسي هذه التناقضات دون التعرّف على مغزاها العميق، أنا، المرهق تعبًا، فإنّ عاصفة تلاحقني" (لأ ٢: ٣٦–٣٨. ٤٣. ٤٨). وأما أيوب، ففكره الحكمي يقوده إلى الاستنتاج نفسه إذ إنه أيضًا يعتبر الإنسان غيرَ قادر على فهم القصد الإلهي. ينشغل الفصلان ٣٨ و٣٩ من سفر أيوب بهذه المسألة والآيتان التاليتان تلخصان الفكرة: "أمِن فهمِك يستقل العقاب وينشر جناحيه نحو الجنوب؟ أو بأمرك يحلّق النسر ويعلّي وكره؟" (أي ٣٩: ٢٦–٢٧). أمام أسئلة كهذه، يطرحها الرب بنفسه على أيوب، يعي هذا الأخير على جهله للأمور فيُجيب: "إن كنتُ سخيفًا فماذا أجيبُك؟ يدي أضعها على فمي. تكلمتُ مرة فلا أعود، ومرّتين فلا أزيد" (أي ٤٠: ٤–٥).

وفي متابعة بحثه عن أسباب الغضب الإلهي النازل عليه يُقرّ الحكيم البابليّ بأنّ، في آخر المطاف، كلُّ بشرٍ لخاطئٌ إزاء الآلهة لأنّه جاهل ولا يعرف أن يعمل ما يليق بقداسة الآلهة ولأنّه يجهل الحق: "ليتَني أعرف إذا كان كلّ هذا مرضيًا للإله. لأنّ ما هو حسن بعينينا قد يكون مسيئًا بعيني الإله وما يكرهه الإنسان قد يكون مرضيًا عند الإله" (لأ ٢: ٣٣–٣٥). من هنا نستنتج أنّ ناظم هذه القصيدة يعتبر الجهالة منهلاً لكل الأوجاع والسبب الذي يوقظ الغضب الإلهي على البشر. وبناءً على هذه الفكرة يتثبّت

[6] راجع: von Rad, G., *Wisdom in Israel*, London: Xpress Reprints, 1997, 128f.

العدل الإلهي ويفهم الإنسان أنّ المشيئة الإلهية دائمًا على حق حتى إذا كانت الوقائع تدلّ، في الوهلة الأولى، على غير ذلك. هذا ما يردّ الشاب الحكيم أليهو على اتهامات أيوب المتألم عندما يقول: "فحقًّا إن الله لا يفعل سوءًا والقدير لا يعوج القضاء... لأنّ عينيه على طرق الإنسان وهو يرى كل خطواته... ولكونهم أشرارًا يصفقهم في مرأى الناظرين، لأنّهم انصرفوا من ورائه وكل طرقه لم يتأملوها" (أي ٣٤: ١٢. ٢١. ٢٦-٢٧).

الاعتراف ببرّ الله ورحمته

أمام قساوة الآلهة لا يقدر الإنسان إلا أن يطلب الرحمة بإلحاح وأن يتوب ليُسكن الغضب الإلهي العادل والحق لأنّه إذا رأى أنّ الإنسان قد تاب يعود فيرسل الشفاء والنجاة: "وبعد أن ارتاح قلب إلهي وبعد أن هدأت روح مردوك الرحيم، واستمع إلى توسلاتي وإلى صلاواتي... فمنحني نعمته" (لأ ٣: ٥٠-٥٢. ٥٤). في خطبته الأخيرة يعترف أيوب بإثمه ويقرّ بأنّ خبرة الآلام قد أدّته إلى معرفة حقيقية لله: "تكلمتُ بكلام باطل على معجزات لا أدرك مغزاها ... لذلك أستردّ كلامي وأندم وأنا هكذا في التراب والرّماد" (أي ٤٢: ٣ و٦).

لأجل ذلك يخبر الكتابان في خاتمتهما عن إعادة تأسيس حياة المتألم الذي بعدما تاب وعرف ربَّه حق المعرفة يُزاد له النِعم والخيرات. "وردّ الرب أيوب إلى ما كان عليه من جاهٍ حين صلّى من أجل أصحابه. وزاد الله أيوب ضعفَ ما كان له قبلُ"، يقول سفر أيوب في ٤٢: ١٠. وأما القصيدة البابلية، فتنتهي بنشيد شكر يعترف برحمة الإله: "السيد هداني، السيد أقامني، السيد وهبني الحياة... مَن غير مردوك يمكنه إحياء أحد من حالة موته؟" (لأ ٤: ٧٣-٧٤. ١٠٣). تثبّت هتان النهايتان برَّ الله وعدله السماويّ كما أنّها تشدد على رحمته ورأفته تعالى. الله يعطي والله يأخذ وفي الحالتين هو على حق، لأنّ الإنسان مهما سعى واجتهد يبقى دائمًا خاطئًا وجاهلاً أمام برّ الله وحكمته.

الخاتمة

لاريب أن كاتب سفر أيوب اطّلع على القصيدة البابلية التي درسناها ههنا. ولكنّ سفر أيوب الحكيم يأتي بعد قرون طويلة من صدور القصيدة ومحتواه يظهر تفنّن أدبي متطور إلى مدى بعيد. فأيوب لا يعتمد فقط على الرثاء الحكمي ولكن هناك مقاطع حوارية وسردية تشهد لتكامل هذا الكتاب وتوسعه في معالجة مسألة الآلام عند الأبرار. ومما يؤكد فرادة سفر أيوب هو تركيزه على وحدانية الله وعدم اعترافه بممارسات غريبة كالتي يقوم بها العرّاف والساحر ومفسر الأحلام المذكورة في القصيدة البابلية إلى جانب أسماء الآلهة واعتقادات خاصة بديانتهم المحلية. بتشديده على وحدانية الله يبرهن سفر أيوب انتماءه الخاص إلى أدب الشعب المؤمن بالرب الواحد، الخالق كل البشر والجابل كلّ الخلائق.